(المقالات والآراء)

الحيوان يعظ الإنسان

د. عبد الكريم اليافي

تأمّل العرب وغيرهم من الأقوام طباع الحيوان ودرسوها، فوجدوا بعض وجوه الشبه بينها وبين طباع بعض الناس.

شيمة الثعلب المكر، وشيمة الذئب الغدر. ولكن مغبّة الغدر والمكر دمار مرتكبَيهما، كما أنّ في التعاون قوّة لا تُقهر. ولا غروَ أن يعمد الحكماء والشعراء إلى استغلال الحيوان، فيلقوا عليه مشكلات الإنسان، ويحاولوا تمثيلها على ألسنته وأعماله.

جاء في كتاب الحيوان للجاحظ: «قال أبو الحسن عن سلمة بن خطّاب الأزدي قال: لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكَنَتكَ الفرصةُ من العرب بتشاغل بعضِهم مع بعضٍ، لوُقوع بأسِهم بينَهم. فالرأيُ لكَ أن تغزوَهم إلى بلادهم. فإنك إن فعلت ذلك بهم نلتَ حاجتَكَ. فلا تَدَعْهم حتى تنقضيَ الحربُ التي بينهم فيُجمعوا عليك. فنَهاهُم عن ذلك وخطَّأَ رأيَهم. فأبَوا عليه إلاّ أن يغزُوا العربَ في بلادهم. فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبَين فحَرَّش بينهما. فاقتَتَلا قتالاً شديداً. ثم دعا بثعلب فخلاّه. فلمّا رأى الكلبانِ الثعلبَ تركا ماكانا فيه، وأقبلا عليه حتى

قتلاهُ. فقال ملكُ الروم: كيف ترَونَ؟ هكذا العرب، تقتتل بينها فإذا رأونا تركوا ذلك، واجتمعوا علينا. فعرفوا صدقَهُ، ورجعوا عن رأيهم»[1].

هذا وقد نبغ الشاعر الروسي إيفان كريلّوف، وتأثر بالشاعر الفرنسي لافونتين، وترجم طائفة من قصصه على لسان الحيوان. لافونتين نفسه كان قد تأثَّر بكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، الذي غدا عيالاً عليه كل من عالج مثلَ هذه القصص. فقد تُرجم كتاب كليلة ودمنة إلى الفرنسية بعنوان:

Le livre des lumières ونُشر سنة ١٦٦٤م.

كريلّوف هذا كتب قطعة شعرية حين غزا نابليون بونابرت روسيّا، فتعثر في ربوعها وأراضيها الشاسعة وبردها القارس، يلمّح فيها إلى ذلك التعثّر والخيبة. وقد كنا ترجمناها إلى العربية متقيِّدين بالنص الأصلي وهذه هي الترجمة:

ذئب في حظيرة الكلاب

تَسلَّلَ الذئبُ ليغتالَ الغَنَم لكنَّهُ ضلَّ الطريقَ المقتَحَم
في ليلةٍ حالكةِ الجِلبابِ فحَلّ في حَظيرةِ الكِلابِ
وهَبّ مَن في الحَيِّ مِن كُواهُ لما أحَسّ الوَغدَ في حِماهُ
وهرَّتِ الكلابُ في الزرائِبِ واستشرفَت لداهِم النَّوائبِ

(١) كتاب الحيوان، للجاحظ (ت٢٥٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٧ هـ، ٢: ١٧٢– ١٧٣.

تَصايَحَ الشبّانُ يا لَلسّارقِ هيّا إلى العِصِيِّ والبَنادِقِ
وطارَ كُلٌّ مالكاً صَوابَه وأسرَعوا فأقفلوا البَوّابَه
فصارَتِ الحَومةُ كالجَحيمِ تُنذِرُ بالنارِ على الرَّجيمِ
لما رأى الأرعَنُ ما دَهاه أقعَى لَدى الجِدار واستَذراه
أنيابُه اصطكَّت مِن الإبلاسِ وشَعرُه قفّ أمامَ النّاسِ
وعَينُه تَلتَهِم الجَماعة كم ودَّ لو يَفِرْسُها في ساعة
وما رأى أمامَهُ قَطيعا وإنّما رأى العِدا جمَيعا
وأيقنَ الهلاكَ والتَّبابا والعاجِلَ المخِيفَ والحِسابا
فلجأ الماكرُ للمفاوَضَه لعلّه يُغوي بها من عارَضَه
وصاحَ ياصَحبُ لِمَ الضَّوضاءُ آن لنا أن يُنْبَذَ العِداءُ
قد جِئتُ للصُّلحِ وللصَّداقة كم بَيننا فيما مَضى عَلاقة
بُنوّةُ الأعمام والأخوالِ تشهدُ بالصِّدق على مَقالي
فلْنَنْسَ ما فات ونَبْنِ الآتِيا ولنُرْسِ فيما بينَنا الأواخِيا
لا غَدْرَ، لا اغتِيالَ بينَ الغَنَمِ لسوف أحمِيها بروحِي ودَمِي
نعيشُ منذُ اليَوم كالأحباب واقَسَمِي بشَرَفِ الذِّئاب

ولاح من بينِ الجُموع ضارِي فؤادُه قد ضاقَ بالثَّرثار

قالَ لهُ كم بينَنا مِن فارِقِ أعرِفُهُ منذُ زمانٍ سابِقِ

فلونُكَ الغَبْرة والعَماءُ ولَونِيَ الشُّهبةُ والصَّفاءُ

وطبعُكَ الخِداعُ والخِيانة وطَبعِيَ الوَلاءُ والأمانة

هَيهات أن نَرَكَنَ للخُوّانِ إنّهُمُ للسَّلخِ والهَوانِ

وأهوَتِ الكِلابُ فوقَ الذئبِ تنهشُه مِن رأسِهِ والجَنْبِ